ولأقل تقدير - كانوا لا يعاندون الحق على غفلتهم، فهما - إذاً - ممن ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ منذ الغابر وحتى الوقت الحاضر، عائشين اتباع الذكر، فهم - دوماً - عنه يتتبعون!

وهذا شكٌّ مقدس وغفلة غير مقصرة، لا ينقصه إلَّا عدم بلوغ الحجة البالغة، وهؤلاء هم الذين يؤثر فيهم الإنذار.

فـ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ يعرف الرحمن كأصل أوَّل في حقل الذكر، فيخشى الرحمن بالغيب، يخشاه وهو تعالى ﴿بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ ثم ويخشاه ﴿بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ عمن سواه دون رئاء، ويخشاه بغيب ضميره وسريرة قلبه، فتظهر الخشية في أفعاله - إذاً - فهو في شهوده أخشى.

وكما اتباع الذكر درجات، كذلك خشية الرحمن بالغيب درجات: بغيبه تعالى، ثم بالغيب عن خلقه، ثم بغيب ضميره، كما ولكلٍّ من هذه الثلاث أيضاً درجات!

فلما أثر الإنذار يأتي - إذاً - دور التبشير ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ﴾ عما سلف ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾[1] ومغفرة حين اتباع الذكر، وخشية الرحمن عن تقصيرات أو قصورات، إذ لا يخلوا أي مكلف عن لمم إلَّا السابقين والمقربين، ثم ﴿وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾: واسع، أوسع مما يستحقه ويرجوه، فهو أجر كريم من إله كريم، إلى عبد كريم، وأين كريم من كريم؟.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾:

هنا جموع ثلاثة موكدَّة بحرف التأكيد تؤكد إحياء الموتى في جمعية الصفات[2] وجمع الجموع أولاً في الذكر وهو آخر في الواقع، كما وتوكد

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

(٢) ولا يعني الجمع في مثله جمع الله وملائكته امّن ذا إذ لا يجعل الله نفسه المقدسة مع عبيده ولا سيما في الأفعال الخاصة به، فقول الصدر الشيرازي في تفسير يس ص ٣٩: أي هو تعالى =

كتابة ما قدموا وآثارهم وليس إلَّا في حياة التكليف، كذلك وإحصاء كل شيءٍ في إمام مبين وهو يسبقهما، وليس عكس الترتيب إلَّا بحساب ترتيب الأهمية، فالمحور الرئيسي في هذه الثلاث هو إحياء الموتى، ويلحقه إنذار: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ﴾ ثم يتم الإنذار ويطم ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

لا محيي للأحياء يوم الإحياء إلَّا هو، ولا كاتب لأعمالهم في حياة التكليف إلَّا هو، ولا محصي لكل شيءٍ قبل شيئه إلَّا هو، توحيداً في مثلث الأفعال مبدأً ومعاداً وبين المبدأ والمعاد فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

وعل ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ يعم بُعدي الموت، قبل الحياة الدنيا وبعد الموت عنها: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]: نُحيي موتى الأجِنَّة بعد موتها الكائن «فأحياكم» ثم نحيي موتاهم بعد حياتهم وموتهم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

فالإحياء الأول قضيةَ الفضل واقعٌ مكرور على أية حال، ملموس غير منكور بحال، فبأحرى الإحياء الثاني قضيةَ العدل وهو أهون عليه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾[2].

ثم ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ﴾ في الحياة الدنيا تثبيتاً لها في ظروف عِدَّة، حجة لهم وعليهم يوم يقوم الأشهاد، كتابة في أعناقهم وذوات أنفسهم بتسجيل الصور والأصوات: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ

= أو ضرب من ملائكته المقربين المهيمنين الذين فعلهم مطوي في فعل الحق لفناء ذواتهم بغلبة سلطان النور الكامس الأزلي على أنوارهم واقتفاء أشعة تأثراتهم العقلية تحت شعاع الضوء القيومي - مردود إلى قائله - ومن الغريب اعترافه بفناء ذواتهم ثم تفسير أجمع ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ [يس: ١٢] بظهورهم بجنب الحق لحد صنعوا بجنابه، وظهروا بجانبه!

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الروم، الآية: ٢٧.

﴿ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾[1] وكتابة في أرضهم بأجوائها وأشيائها بأشياعهم: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾[2] ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3] وكتابه بكرام كاتبين مؤمَّرين من قبل رب العالمين ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾[4] وكتابة في سجلَّات ضمائر الشاهدين: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[5] كتابات أربع تجمع كافة الشهادات العينية وما دونها.

وترى ما هو الفارق بين ﴿مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾؟ والأعمال كلها مقدَّمة لأنها كلها مكتوبة متطائرة دون إبقاء! علَّ الفارق بينهما أن «ما قدموا» هي الأعمال المنقطعة بعد ما عُملت مهما سُجِّلت، إذ لا يبقى لها أثر يُتَّبع، وأما «آثارهم» فهي الباقية بعد ما عُملت من سنة حسنة أو سيئة تُتَّبع وكما يروى عن الرسول ﷺ[6] وذلك كعلم ينتفع به أو يضر، وبناء مسجد أو مفسقة، وولد خَلَف أو متخلف، أمَّاذا ومَن؟ من أثر خير أو شر يُتَّبع، فإنه مكتوب قدر ما يتبع، كما أن ما قدموا يُكتب كما قدّم، بل وآثارهم في وجه هي مما قدَّمت، وإنما أفردت بالذكر بعد «ما قدموا» تنبيهاً أنها تحسب بحساب صاحب الآثار مهما انقطع العمل، لأنه من عواملها إذ سنَّها وعبَّد طريقها.

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣، ١٤.
(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٤، ٥.
(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.
(٤) سورة الانفطار، الآيتان: ١١، ١٢.
(٥) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٦) الدر المنثور ٥: ٢٦٠ - أخرج ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال قال رسول الله ﷺ: من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم ومن سن سنة سيئة كان عليها وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيء ثم تلا هذه الآية ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢].

وقد تشبه الآية ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[١] فـ«ما قدم» هو ما قدموا، وما «أخَّر» هو آثارهم.

وقد تعم «آثارهم» الأنفسيةَ منها بجنب الآفاقية، فقد يعمل خيراً أو شراً منقطع الأثر نفسياً وخارجياً، وأخرى له أثر في نفسه نتيجةَ الإصرار والتكرار، فيصبح ملكةً بعد ما كان حالاً وعملاً، وثالثة له أثر خارجي لا نفسي كملكة، ورابعة له الأثران، فـ«آثارهم» قد تعم الثلاثة الأخيرة مهما اختلفت درجاتها أو دركاتها، فإنها مشتركة في بقاء آثار للأعمال بعد انقطاعها، ومثالاً للأثر النفسي خيراً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[٢] وآخر لها شراً ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[٣] فتلك من كبائر الحسنات، وهذه من كبائر السيئات.

فالأعمال - إذاً - مكتوبة لا هي فحسب، بل بمفعولياتها وفاعلياتها، الباقية بعد انقطاعها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهذا هو السرّ في زيادة العقوبات زمناً على السيئات - أحياناً - ونقيصتها عنها أخرى - حيث العمل يوزن - يوم الوزن - بمخلَّفاته، لا فحسب بذاته، فالخلود أبدياً وغير أبدي، وهما محدودان لأصل الحد في العمل بمخلفاته وخلفياته، ذلك الخلود لا تجب موازاته زمناً وفي مادة العذاب بنفس العمل مادة وزمناً، بل وكما يكتب ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ من العمل وآثاره ﴿أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾!

وقد تشمل ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ﴾ آثارَ أقدامهم إلى حسنات[٤] أو سيئات، فإنها

(١) سورة القيامة، الآية: ١٣.
(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٤) المصدر أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن مردويه عن أنس قال: أراد بنو سلمة أن يبيعوا دورهم ويتحولوا قريب المسجد فبلغ ذلك النبي ﷺ فكره أن تعرى المدينة فقال: يا بني =

ليست مما قدموا كأصول الأعمال، فلا تشملها ﴿مَا قَدَّمُوٓاْ﴾ ولأنها من سنن تتبع حسنات أو سيئات فهي من آثارهم.

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ﴾ مما قدموا وآثارهم أما ذا من شيءٍ كائنات العالم كله، وأفعالها وأحوالها ما ظهر منها وما بطن، كل ذلك دونما إبقاء ﴿أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ والإحصاء هو العلم التفصيلي، والإمام المقتدى، والمبين هو المظهر، فما هو الإمام المبين؟

لا نجد الإمام المبين إلَّا هنا وفي الحجر ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾[1] وهما أصحاب لوط وأصحاب الآيكة بما انتقم الله منهم، فعلَّه صيغة أخرى عن اللوح المحفوظ وأم الكتاب، والكتاب المبين، تعبيرات أربعة عن علمه التفصيلي بكل شيءٍ، فهم وما قدموا وآثارهم، وكل شيءٍ سواهم، وكل فعل بجزائه، كل ذلك سابق في علم الله حتى وإحياء الموتى وكتابة ما قدموا وآثارهم، ولكنه ليس تقدير التسيير، وإنما تقدير العلم الكاشف عما سيكون كما يكون، بتسيير أو تخيير، فليس إحصاء الأعمال التكليفية في كتاب مبين بالذي يقدرها تسييراً، وإنما هو كشف عنها كما يحصل تخييراً.

ولأن ذلك الإحصاء لكل شيء لا يعزب عنه شيء فقد ينحصر بالله الذي يعلم كل شيء ويقدره، منحسراً عمن سوى الله وإن كان الرسول الأقدس ﷺ وذويه، فليس عندهم الإحصاء المطلق كما عند الله، إلَّا مطلق الإحصاء مما علمهم الله، فهم - إذاً - المصداق الثاني للإمام المبين[2] واللوح المحفوظ

= سلمة أما تحبون أن تكتب آثاركم إلى المسجد؟ قالوا بلى فأقاموا وعن ابن عباس فأرادوا أن ينتقلوا قريباً من المسجد فنزلت: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ [يس: ١٢] فقالوا: بل نمكث مكاننا، أقول وأخرج ما في معناه جماعة آخرون.

(١) سورة الحجر، الآية: ٧٩.

(٢) نور الثقلين ٤: ٢٧٩ ح ٢٧ في كتاب معاني الأخبار بإسناده إلى أبي الجارود عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عن أبيه عن جدِّه عليهم السلام قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ =

وأم الكتاب والكتاب المبين ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾(١).

وعلَّ التنكير في ﴿إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يلمح لذلك الشمول جرياً للعلم المطلق

= ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢] قام أبو بكر وعمر من مجلسهما وقالا: يا رسول الله ﷺ هو التوراة؟ قال: لا قال: ا فهو الإنجيل؟ قال: لا قالا: فهو القرآن: قال: لا قال، فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام فقال رسول الله ﷺ: هو هذا إنه الإمام الذي أحصى الله فيه تبارك وتعالى علم كل شيء.

أقول: إنه تفسير بمصداق ثان ناطق في الخلق وأوله رسول الله ثم أوله الصامت كتاب الله وكل الثلاث من المصاديق التالية لعلم الله.

وفي تفسير البرهان ٤: ٧ ح ٨ الشيخ في مصابيح الأنوار بإسناده عن رجاله مرفوعاً إلى المفضل بن عمر قال: دخلت على الصادق عليه السلام ذات يوم فقال لي: يا مفضل عرفت محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام كنه معرفتهم؟ قلت: يا سيدي ما كنه معرفتهم؟ قال: يا مفضل عرفت تعلم أنهم في طير الخلائق بجنب الروضة الخضراء فمن عرفهم كنه معرفتهم كان معنا في السنام الأعلى قال قلت: عرفني ذلك يا سيدي؟ قال: يا مفضل تعلم أنهم علموا ما خلق الله عزوجل وذراه وبراه وأنهم حكمة التقوى وخزناء السماوات والأرضين والجبال والرمال والبحار وعرفوكم في السماء نجم وملك ووزن الجبال وكيل ماء البحار وأنهارها وعيونها وما تسقط من ورقة إلّا علموها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين وهو في علمهم وقد علموا ذلك فقلت: يا سيدي قد علمت ذلك وأقررت به وآمنت قال: نعم يا مفضل نعم يا مكرم نعم يا طيب نعم يا محبوب طبت وطابت لك الجنة ولكل مؤمن بها وح ٩ عنه رواه عن أبي ذر في كتاب مصباح الأنوار قال: كنت سائراً في أغراض أمير المؤمنين عليه السلام إذ مررنا بوادي النمل ونمله كالسيل سار فذهلت مما رأيت فقلت: الله أكبر جل محصيه فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ولا تقل ذلك يا أبا ذر ولكن قل جل باريه فوالذي صوّرك إني أحصي عددهم وأعلم الذكر من الأنثى بإذن اللّه و١٠ عن عمار بن ياسر قال كنت مع أمير المؤمنين عليه السلام في بعض غزواته فمررنا بوادٍ مملوء نملاً فقلت: يا أمير المؤمنين عليه السلام ترى يكون أحد من خلق الله يعلم كم عدد هذا النمل؟ قال: نعم يا عمار أنا أعرف رجلاً يعلم كم عدده وكم فيه ذكر وكم فيه أنثى فقلت: من ذلك يا مولاي الرجل؟ فقال: يا عمار، قرأت سورة يس ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾؟ [يس: ١٢] فقلت: بلى يا مولاي قال: أنا ذلك الإمام المبين.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

على مطلق العلم، فكما يفسر هكذا الصراط المستقيم بأمير المؤمنين عليه السلام كذلك الأمر في إمام مبين، فإنهما من تفسير التطبيق على مصاديق دون المصداق المطابَق المعنيِّ في أصل الكلام.

ولأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومعه عترته المعصومون عليهم السلام من شهداء الأعمال، والله يحصي فيهم أعمال العباد كلهم، فهم ممن يُكتب فيهم ﴿مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ وكما يكتب فيهم سائر العلم إلّا ما اختص الله بعلمه.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ
إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ
مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ
﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ
ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم
مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۡۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ
مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ
ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ
لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن
يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾
إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ
ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا
كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾
يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾
أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾
وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا﴾ بطيّات إنذارك ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ مثلاً يشبه هذه الدعوة والمدعوين في كونهم قوماً لداً وحجاجهم اللدود ومصيرهم العسير يوم الدنيا ويوم الدين.

وعدم الإفصاح عن اسم القرية وسمة أهلها مما يفصح أنهما لا يزيدان في دلالة القصة وإيحائها إلى ما يرام منها، فلا يهمنا أنها «انطاكية» كما تقول الروايات أم غيرها، وكما لم يفصح عن أسماء الرسل، حيث الرسالات طبيعتها واحدة، كما المرسل إليهم، مهما اختلفت مواد الدعوة في بعض صورها وأزمنتها وأمكنتها، ولذلك لا نرى من أسماء الألوف من الرسل إلَّا زهاء ستة وعشرين رسولاً في القرآن، كان ذكرهم لزاماً في هذه الرسالة الأخيرة.

وقد تلمح «إذ أرسلنا» لرسالة دون وسيط من رسول الإنسان[١] مهما كان رسول الرسول بأمر الله رسولاً من الله، فلا تنافيه الرواية القائلة أنهم رسل المسيح عليه السلام[٢] اللهم إلَّا بولس الخائن إذ لم يكن من الحواريين ولم يؤمن بالمسيح إلَّا غدراً بعد صعوده عليه السلام فلم يكن المسيح ليرسل رسولاً إلا بإذن الله، وإذ لم يصدق «إذا أرسلنا» فمن المستحيل أن يرسله الله على علمه أنه خائن[٣].

(١) نور الثقلين ٤: ٢٧٩ ج ٣٠ - تفسير القمي بسند متصل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن تفسير هذه الآية فقال: بعث الله عزوجل رجلين إلى أهل مدينة أنطاكية فجاءهم بما لا يعرفون فغلظوا عليهما فأخذوهما وحبسوهما في بيت الأصنام فبعث الله الثالث فدخل المدينة...

(٢) المصدر عن المجمع قال وهب بن منبه بعث عيسى هذين الرسولين إلى أنطاكية... فلما كذب الرسولان وضربا بعث عيسى عليه السلام شمعون الصفا رأس الحواريين على أثرهما لينصرهما...

(٣) الدر المنثور ٥: ٢٦١ - أخرج ابن أبي حاتم عن شعيب الجبائي قال: اسم الرسولين اللذين قال: إذ أرسلنا إليهم اثنين شمعون ويوحنا واسم الثالث بولس!

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾:

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ كما كُذِّبت أمم قبلهم وبعدهم ومعهم بعذرهم البائس المتكرر: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا...﴾[1] ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ الرسولين برسالتهما ﴿بِثَالِثٍ﴾ فإنَّ في تلاحق الحجج مزيداً من الاعتزاز للحق ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ جميعاً بكلمة واحدة: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ صيغة سائغة صارمة بتأكيد ﴿إِنَّآ﴾ وتقدُّم الظرف الموحي للاختصاص: ﴿إِلَيْكُم﴾ مع التعزيز بثالث.

فقبل الثالث «كذبوهما» بإجمال دونما عناية واعتداد، فلما عززنا بثالث فصرمت الحجة، أخذوا في سَرْد الرد عليهم بعرض عريض إذ عرفوا تلاحق الرسالة في تعزيز دونما وقفة، فحاولوا في نكرانها واحتالوا في تكذيبها بحجة مفصلة هي في زعمهم قاطعة قارعة، ولكي يرتاحوا عن تواتر الرسالة.

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾:

﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ كحجة أولى لتكذيبهم، حيوانيةِ التصور، إذ تحصر إنسانية الإنسان ببشريته، دون أن تحسب روحه وروحانيته بحساب، وفي هذا المقياس الحيواني هؤلاء هم أولى بالرسالة إذ يملكون من حيوانية الإنسان أكثرَ منهم، وهم كأمثالهم معترفون بمماثلتهم في بشريتهم، ولكنهم يمتازون عنهم بما يوحى إليهم قَدَر الاستعداد في روحياتهم وقابلياتهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا...﴾ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ...﴾[2] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ...﴾[3].

فالمماثلة في البشرية ليس لزامها المماثلة في سائر الميزات الروحية

(١) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١١.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١١.